مقدمة الطبعة الثانية

إذا كان بعض الفلاسفة والمفكرين، يرى أن فى أعماق كل إنسان ذرَّة من الشعر، فإن التكوين النفسي للإنسان جبل فى الأغلب على حب الاستطلاع، بدرجة تجعله تواقًا لأن يقص وأن يستمع للقص، بل إنه ليشعر بحاجة غريزية لهذا القص تفوق أحيانًا حاجته إلى تلبية بعض غرائزه الطبيعية، كالطعام والشراب والأمومة.

ويكفى تدليلاً على ذلك، أن الرسالات السماوية، جميعها قد اتخذت من القصة سبيلاً وحيدًا للوصول إلى عقول وقلوب البشر، وكان ذلك النهج يسيرًا على الأنبياء والرسل فى التبليغ عن الله أملاً فى هداية البشر، وعملاً على دفعهم لالتقاط الدروس والعبر، من خلال سرد المواقف والسير عبر نخبة من القصص. لقد قضت الإرادة الإلهية وهى إرادة العليم الخبير، أن تكون القصة - وليس الشعر أو المسرحية أو أية وسيلة أدبية - هى لغة الخطاب المثلي، التى تتسق وروح الإنسان، لأنها فوق جاذبيتها تعلِّم، وإلي جانب حيويتها ونبض شخصياتها تعظ وتنصح.

وهكذا مضي فن القص يتغلغل ويتعاظم، وتتعدد أشكاله فى صورة روايات وسير شعبية، وأخبار وأدب رحلات، ومع التكنولوجيا الحديثة ظهر فى أفلام ومسلسلات، وهو فى المسرح أصيل ولم ينج الشعر من القص، بل لقد أصبح سمة أساسية من سماته، بعد أن تلاشت أو كادت الأغراض القديمة التى ابتلعت الشعر العربي ردحًا من الزمان، مثل المدح والهجاء والرثاء والفخر. ولا نجد

غضاضة إذا قلنا: إن لكل شيء فى الحياة قصة.

للإنسان كما للحيوان وللنبات، وللموت والحياة والبناء والهدم، والحب والكراهية وللسحاب والمطر، والمرض والسفر، بل وللعلم والاختراع، وحركة الغبار والرياح والجبال والأنهار والأضواء والظلمة، وللقبح قصة وللجمال والسحر والحرب، والقصص ظاهرة وباطنة، معلنة ومخبوءة، وقد جبل البشر على طلبها أنَّى كانت، وعلى أي نحو وفى كل الأحوال، حتي لو كان الإنسان طريحًا على فراش الموت.

ولذلك رأينا أن نتأمل قليلاً هذا الفن، باستجلاء معالم وحدة من وحداته، ذلك الكيان الصغير الجميل، المتفرد المالك لمفردات الإبداع والسحر، والذي تهدده الكثير من الوسائل الحديثة، خصوصًا ما يعتمد منها على الصورة، فضلاً عن الصحافة التى غدت تتجاهله، وهو الكائن الخجول الذي يمتلك كل أدوات التغيير والتأثير والإمتاع.

لقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قبل بضع سنوات، ونفدت خلال أيام قليلة، بما يشى بحاجة الشباب من هواة القصة، وشُدَاتها، إلى الغوص فى بحار هذا الفن، والتنقيب عن لآلئه وأسراره، ويتطلع آلاف الموهوبين فى العالم العربي لكتابة قصة جديدة، تتجاوز كثيرًا ما تم إبداعه على يد أجيال عديدة، أسهمت فى تطوير هذا الفن طوال القرن العشرين، لا يتعين أن نتجاهل فضلها، لكن الاعتراف بالفضل لا يحول دون التذكير بأن بعض القصص التى تنشرها الصحف والمجلات، وجانب من المجموعات الصادرة تحوى أعمالاً متوسطة القيمة وأحيانًا رديئة، تفتقر إلى أبسط القواعد، وكم تجنى فرص النشر السهلة على هذا الفن وأصحابه.

ولأن الإبداع الأدبى لا تعلِّمه المدارس، ولا ترعاه الجامعات، فقد أضحي من الطبيعي أن تضيء بعض جوانبه كتب تصدر بين الحين والحين، وقد صدرت عدة كتب بالعربية عن فن كتابة القصة، كان آخرها كتاب الدكتور رشاد رشدي الصادر عام 1959، وكتاب حسين القباني عام 1962، وكلاهما لم

يمنح فن القصة ما يستحق، واعتمدا على تحليل بعض القصص الغربي، الأمر الذي يستوجب إضافة وإضاءة وطرحًا لرؤيتنا، حول منجزات القصة العربية، كما يقتضى الاعتراف بأن الفن بلا قواعد جامدة ولا خطوط أو دوائر، ولكنه فى الوقت ذاته ليس انطلاقة بلا معنى ولا شكل، وليس انفجارًا مجنونًا فى كل الاتجاهات، لأنه - أردنا أم لم نرد - يتجه إلى قارئ يتمتع بذائقة معينة، ويستقبله بذاكرة تعي آفاق هذا الفن، وتثق فى أهمية التجديد الذي يمضي إلى حد كبير داخل أطر أساسية، مثل الهارموني والوحدة والتجانس والتشكيل الجمالي الملهم، لملكات المتلقين وتطوير الذائقة التى قد يصيبها الخمول أو الذبول. وهذا الكتاب ليس بالكامل من وضع صاحبه، بقدر ما هو محاولة جادة لإعادة قراءة نصوص بلغت درجة عالية من الجودة، وامتلكت باقتدار كل أدوات التأثير والإمتاع، ومن ثم استطاعت أن تطور الفن وتجدده، وأن تفتح آفاق التذوق لدي القراء. يعد هذا الكتاب رحلة مع مفردات القصة القصيرة وتجلياتها، فى العديد من النماذج، وارتقاء لدرجات الإجادة عبر الاكتشاف المتواصل لأسرار الفن ودروبه، وطبقات الإبداع فيه، كلها من صنع المبدعين. ولا يزال الأمل يخامرنا، أن تلقي الفنون المختلفة، بما فيها فن القصة، العناية اللائقة لدي المؤسسات التعليمية التى أشك فى أن القائمين عليها يدركون جيِّدا آثار الفنون على الإنسان، فهى ليست فقط صانعة الوجدان، بل صانعة العقول والقلوب، وإحدي الركائز المهمة لصياغة فكر مجتمع، يطمح إلى مستوي أفضل من الحياة، ولن تعوض كل ما تنتجه التكنولوجيا مهما أوتيت من عبقرية، تراجع الفنون الرفيعة أو حرمان الإنسان منها.

مقدمة الطبعة الأولى

فى البداية ، لابد أن نشير إلى أنه أصبح معروفًا ومستقرًا ، أن المقصود بالقصة هى القصة القصيرة، وكانت من قبل تعني كل الفنون القصصية ومنها الرواية ، ولعله مما لا يغيب عن وعي القاريء الحصيف، أن القصة القصيرة تنفرد بسمات تتمكن بها من تجاوز سائر الأجناس الأدبية الأخري، فى امتلاك لغة الخطاب المنسجم مع العصر وأهله، فهى أولاً قصيرة يمكن أن تستوعبها الصحيفة اليومية والأسبوعية، وتحتضنها المجلة، كما يمكن أن تضمها دفتا كتاب. وهى ثانيًا قابلة لأن تكون فى مجلة سياسية أو ثقافية أو اجتماعية أو اقتصادية أو نسائية أو سياحية أو مهنية، وغير مستبعد أن تكون فى مجلة علمية.

فأغلب هذه الألوان من المطبوعات يرحب بالقصة، بوصفها نصًا أدبيًا يتعامل مع الوجدان، وتتم صياغته بحيث يصبح مؤهَّلاً لإنتاج المتعة والمعرفة الإنسانية. وثالثًا - وفى هذا الإطار - تبدو أقرب إلى يد المتلقي، فأيًا كانت الدورية التى يميل القارئ إليها، فسوف تتضمن فى أحد أعدادها قصة قصيرة. ورابعًا أنه لن يتجشم فى ذلك عبئًا ماليًا خاصًا. والمجموعة القصصية كالرواية وديوان الشعر، قابلة للمطالعة فى أي مكان وفى أي موضع، وليست فى حاجة إلى جهاز خاص كشريط الفيديو، ولا تستوجب مغادرة المنزل، وقد تقرأها على النت. والقصة خامسًا مادة إنسانية جذَّابة، تتواءم مع طبيعة التكوين الفطرى للإنسان، الذي عشق القص

منذ عرف الحياة ووعي ما حوله. والقصة سادسًا يمكن أن يقبل عليها أي قارئ، أيًا كان مستواه الثقافى، لأن لغتها بسيطة فى الغالب متدفقة ومنسابة فى نسق مقبول إلى حد كبير، وليست حالها هى حال القصيدة الحديثة، برغم ما أصاب القصة من تغيير وما لحقها من تطور، مع التوسع فى استخدام التقنيات المعقَّدة أحيانًا، والغامضة أحيانًا أخري. والقصة سابعًا، تتميز بالمعقولية النسبية، أى تحقُّق موضوعها فى الواقع أو إمكان تحققه، أو يكفى تصور تحققه، وهى مقبولة أيضًا لو اتسقت أجزاؤها مع بعضها البعض، حتى لو تعذَّر تمامًا تصورُ حدوثها فى الواقع، أينما كان هذا الواقع، ومن ثم فهى فى كل هذه الحالات، لا تتأبي على الفهم ولا تستعصي على التصوير، وليس من سماتها - حتي الآن على الأقل - ما يعوق التعاطف معها والانسجام مع عالمها، مادام الكاتب قد امتلك أدوات فنية مقتدرة، فهى إذن تدور فى حدود ما يقبله العقل الإنسانى، وما يتبعه من وسائل حسيَّة وإدراكية، حتي لو تجاوزته وشقَّت الحجب التى تحده كالرمز واللا معقول والعبث، وغيرها من أشكال التعبير الحداثية، وهى مهما بلغت الذروة فى غموضها الفني، فسوف تظل فى المدي الذي يجعلها مفضَّلة على بعض القصائد الجديدة، التى حطمت الكثير من أصول الفن. واتساقًا مع هذه المميزات التى يتمتع بها فن القص، ومن خلال رصدنا لمستجدات الإبداع الفنى فى شتى الأجناس فقد لاحظنا:

1 - إقبال عدد كبير من شداة الأدب وهواته، على كتابة القصة القصيرة فى أغلب أقطار الأمة العربية، ولم يكن من اليسير على كل هؤلاء الناشئة أن يجدوا بالقرب منهم من يطالع أعمالهم، ويسدي إليهم النصح لتصحيح مساراتهم، وترشيد تجاربهم القصصية، ووضعها على الطريق المفضي إلى قصة فنية جديرة بالقراءة والنشر، وجديرة بأن تحتسب نصًا أدبيًّا ممتعًا تتناقلها الأجيال وتستعيدها بين الحين والحين.

2 - ندرة ما تحتويه المكتبة العربية من الكتب التى تعالج الفنون عامة، والقصة والرواية بشكل خاص، ويعتمد معظم المهتمين بكتابة القصة فى

بداية الطريق، على قراءة أعمال السابقين، وهى بغير شك مصدر معرفى مهم، ومَعْلَمٌ فني كبير، لكن الأمر يظل فى حاجة ماسة إلى توجيه محدد، كذلك الذي يتم فى الورش الأدبية، ويمكن تصوره بمثابة الأضواء التى تدل قائد الطائرة إلى المهبط المناسب، الذي يتعين أن ينزل عليه.

3 - إن مما يؤسف له غياب هذا الفن الإنساني الرائع، من كتب ومناهج المدارس فى شتي المراحل إلاَّ أقل القليل، وكان يجب أن يكون هو الأسلوب السائد حتي فى عرض المواد العلمية، وكان يتعين الوقوف بعمق ورهافة عند أهمية هذا الفن، وتوضيح دوره وعرض نماذج كثيرة تكشف جمالياته، وتأثيره على ذائقة الطلاب والناشئة.

4 - إن الكثيرين ممن يكتبونها بالفعل، وتنشر الصحف والدوريات المختلفة إنتاجهم، فى حاجة لأن يطالعوا من جديد أصول هذا الفن وقواعده الأساسية، ويحرصوا على التعرف على ما لحقه من تجديد وتطوير، وعليهم أن يدرسوا دراسة جادة وموضوعية عناصر القص كافة، فليست القصة القصيرة كما يتصور البعض، موضوعًا إنشائيًا يجيد فيه الكاتب سرد أفكاره وخبراته.

5 - وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، يهمُّنا أن نشجع على كتابتها بوصفها نصًا أدبيًا بديعًا، يتسم بطبيعة خاصة تتناسب وظروف العصر، وهى قادرة على أن تستوعب الكثير من الأحداث والشرائح والمواقف العارضة فى الحياة العربية المعاصرة، وما يتفجر فيها من الرؤي وما يعتمل فى صدور أبنائها من مشاعر وتطلعات، لا تتاح الفرصة للرواية كي تعرضها إلاَّ من خلال رؤية شاملة وبناء قصصي فسيح.

6 - مع انتشاره محطات البث المرئي والمسموع، التى تعرض مختلف أشكال الدراما، بالإضافة إلى السينما، يتعين أن يكون هناك عدد ضخم من كتاب القصة القصيرة المجيدين، إذ لا تستطيع الرواية مهما تعدَّد كتَّابُها، أن تزوِّد تلك المنابر النهمة بالنصوص الأدبية. ونحرص من جانبنا أن يكون الأدب الرفيع هو المنبع الذي تستقي منه قنوات التليفزيون مادتها الفنية، بدلاً من الغثاء

الذى يدبجه بعض محترفى المسلسلات. ونحسب أن هذا الكتاب يطمح إلى أن يلقى بعض الضوء، على أصول وقواعد هذا الفن الجميل، إيمانًا منَّا بأن لكل علم أو فن، مهما كان ذاتيًا، مجموعة من الملامح الرئيسية والخاصة؛ التى تجعل منه كيانًا متميزًا ومستقلاً، برغم ما قد يفيده من إنجازات غيره وتقنياته. لا تزال ثمة مشكلات تتلبس هذا الفن، وتشهد الساحة الثقافية العربية، نشوب الجدل واحتدام النقاش بين حين وآخر، حول قضايا الشكل والمضمون، والبناء القصصي والصدق الواقعى، والصدق الفني، والسرد والحوار بين اللغة الفصحى واللهجة المحلية، وكان لابد أن تجد هذه المشكلات من يتصدي لها من المهتمين بها، المشاركين فى الحياة الثقافية، ويلمسون أوجاعها، كما يدركون حجم تأثيرها فى الحياة العامة. لقد اقتضي الوقوف على هذه المشكلات، توجيه النظرة العلمية الشاملة لفن القصة القصيرة بجميع عناصره، حتي تتاح الفرصة لفض الاشتباك بين محدد من المصطلحات، وإزالة ما يكتنفها من الغموض أو الخلط.

لقد كان فى خاطرى منذ سنوات، أن يتخذ هذا الكتاب صورة البحث الأكاديمى، الذى يعتمد فى أكثر جوانبه على مادة غير موثوق بها، فيعكف على جمعها من المؤلفات العالمية والعربية، وأغلب الظن أن الاعتماد على الكتب الأجنبية، سيكون أكثر من الاعتماد على العربية، لقلة الأخيرة، لكنني لم أستسغ هذا النهج لعدة أسباب، منها:

1 - إننا لا يتعين أن نكون فى كل الأمور عالة على الغرب، نأخذ منهم وننقل عنهم، ونقلِّدهم ونقتدى بهم بداية من النظريات العلمية والتكنولوجيا، وأنظمة ومعدات التسليح، وحتى أسماء الأشخاص والمتاجر والمؤسسات والأطعمة والسلوكيات الاجتماعية المجوجة، حتي أصبحت صورة العرب العامة بالغة السوء، بل معيبة ومشينة، أفضت فى أولي نتائجها إلى محو الكثير من ملامح الشخصية العربية والإسلامية، واجتثاث التراث والخصوصية العربية من قلوب وعقول أبنائها، فضلاً عن أثر ذلك على تشكيل المنظور الأجنبى تجاه

العرب، وترسيخ الإحساس لدي الأجيال الجديدة بالتبعية بوصفها القاعدة وغيرها الاستثناء.

2 - إذا جاز أن نأخذ عنهم الإنجازات العلمية نظريًا وتطبيقيًا ، فلا مبرر على الإطلاق كى ننقل عنهم آراءهم فى الأدب، بعد أن خطا الأدب العربى خطوات فسيحة، وقطع شوطًا متقدِّمًا على الساحة العالمية، حتي لأزعم أن بعض القصص العربية الحديثة تفوق ما أبدعه كبار أدباء العالم شرقًا كان أو غربًا، فلماذا إذن نتطلع إليهم، بوصفهم الأساتذة ونحن الطلاب؟ ولماذا نردد دائمًا ألفاظهم وأسماءهم، فى المحافل وعلى صفحات الكتب؟ مع أن الأحري بنا أن نتأمل تجارب أعلامنا ومنجزاتهم، ونستقطر سلافة الإبداعات التى أنتجتها قرائح أدبائنا، ولا يعنى هذا أن ندخل شرنقة العزلة أو نغالي فى تصور ما أبدعه كتابنا، وننتقل من الإحساس بالدونية إلى الإحساس بالشوفينية أو الاستغناء الكامل، فلا هذا ولا ذاك، إنما الأرجح هو إعطاء كل ذى حق حقه، بالقدر المناسب، وتحقيق التوازن بين مختلف منابع الفكر والإبداع.

3 - إن الاعتماد فى تشكيل مادة هذا الكتاب وما يماثله، يجب أن ينطلق فى الأساس من ذات مبدعة مارست الأدب وعركت موضوعاته وتقنياته، بحيث تكون مادته العلمية - إذا جاز أن توصف بذلك - هى ثمرة من ثمار الممارسة الفعلية والتجربة الحية، لا مجرد نقل عن الكتب عربية كانت أو أجنبية، إذ إننا نميل إلى الاعتقاد بأن المادة المصنعة داخل المطبخ الأدبى، تختلف عن المادة التى يلقيها الأستاذ على طلبته فى الجامعة أو ينشرها بحوثًا مكتوبة.

4 - إننا نؤمن بأن الأفكار الأجنبية المجلوبة مهما بلغت فى مجملها من الوجاهة والنباهة والدقة، فإن من بينها ما لا يتواءم مع الروح العربية، ولا ينسجم مع الخصوصية التى تتميز بها مجتمعاتنا، والنصوص الأدبية والفنية هى تعبير عن روح الشعب وذات المبدع، وليست كالعلم يمكن تطبيقه بكل دقائقه

فى أي موقع من العالم، ولذلك قيل إن العلم بلا وطن، وعلى العكس منه الأدب والفن.

ولا أحسب أحدًا قد نسي أن بعض هذه الدول التى قفزت إلى الوجود والتأثير، بعد الثورة الصناعية، هى دول بلا تاريخ ولا حضارة، وهى مجرد كيان صناعي أنتجه التقدم المادي المعاصر، ولابد أن ثمة فروقًا يجب أن تؤخذ فى الاعتبار. وبعد: إننا لا نزعم أننا قدَّمنا رأيًا قاطعًا، لأن هذه المهمة ليست جهد فرد، ولكنها عمل الحياة الأدبية ونتاج فاعليتها الحميمة الجادة، ولا يغيب عن الأذهان أن الرأي القاطع فى الإبداع الأدبى لا وجود له، وأن ما طرحناه فى هذا الكتاب من علم وفكر وخبرة بحسبه أن يعد اجتهادًا متواضعًا ، وإذا أضيف إلى ما بذله السابقون فإنه غاية المنى والقصد.

والله نسأل أن يلهمنا التوفيق، ويسدد خطانا على طريق الحق والخير والجمال.

فؤاد قنديل